الباب السادس

الضحك والسخرية

ويتضمن الموضوعات التالية :

- الفرق بين الفكاهة والسخرية.
- السخرية وتاريخها وأسبابها ومقوماتها.
- صور السخرية وأساليبها ومكونات الخبر الفكاهى.
- السخرية فى البلاغة العربية.

الفكاهة والسخرية

يمكن أن نعد من حالات الضحك أو ما يضحك الفكاهة والسخرية وكثيراً ما يخلط الناس بينهما ولا يكادون يفرقون بينهما حين يشملهم الجو المرح الضاحك وتنبعث من أفواههم النكات التي يمكن أن تكون لمجرد الإضحاك فحسب وحينئذ فهي الفكاهة، وقد تكون بقصد اللذع والإيلام فهي السخرية، وقد تجمع بين الغرضين.

فمن النكت الفكاهية ما يروى عن أحد المفرطين في شرب الخمر أنه قال له أحدهم: إن الخمر انتحار بطيء.

فأجاب: ولماذا تريدونني أن أنتحر بسرعة؟!

ومن النكت الساخرة نادرة تروي عن أحد الأمراء، فقد التقى يوماً بغريب يشبهه تمام الشبه، فابتدره بقوله -:هل كانت أمك يا هذا تقيم في البلاط الملكي؟ فأجاب الغريب ببديهته الحاضرة: كلا يا سيدي، بل أبي!

وإذا روى أحد الأشخاص النكتة السابقة لبعض الجالسين بقصد الضحك فهي فكاهة، أما إذا حدثت فعلاً في مجلس من المجالس فيعد الرجل ساخراً من الأمير، ولذلك تسمى سخرية.

ومثلها ما يروى عن الممثل الساخر شارلي شابلن حين سئل عن المرأة الطيبة في العالم ،فقال: امرأتان طيبتان في العالم إحداهما ماتت، والثانية مفقودة وهكذا نرى أن كل ما يضحك ، فهو هزل، ولكنه ينقسم قسمين:

أحدهما ليس له غرض أو هدف إلا الإضحاك فحسب وهو ما يطلق عليه الفكاهة، والآخر له غرض هادف واضح ـ سواء أكان معينا أو غير معين حين إلقاء النكتة ـ وهو السخرية .

ولذلك كان المزاح يشمل النوعين: التفكه والسخرية أي الاضحاك واللذع، ويكون المزاح في أول أمره لإشاعة جو مرح ضاحك بين الجالسين ولكنه كثيراً ما ينقلب في النهاية إلى سخرية يتضرر منها بعض الأفراد وقد يعقبها شجار، ولهذا اشتملت كتب الأدب القديمة على النص على كراهية المزاح.

السخرية والهجاء:

عرفنا في الفقرة السابقة أن السخرية تلتقي مع الفكاهة في المنبع الذي تنبعان منه، وقد تختلط إحداهما بالأخرى كامتزاج رحيق فاكهتين مختلفتين،وقد تفترقان، كذلك تمتزج السخرية بالهجاء من ناحية الوظيفة ولكلهما يفترقان من ناحية المادة أو الطبيعة التي يشتمل عليها كل منهما فالهجاء طريقة مباشرة في الهجوم على العدو، ولكن السخرية طريقة غير مباشرة في الهجوم

ألفاظ السخرية وتعريفها :

ولموضوع السخرية عدة ألفاظ في اللغة العربية نسوق موادها المختلفة، والمعاني التي تحملها في طياتها بحروفها ورنينها فهناك الاستخفاف والمداعبة والتعريض والضحك والهزء والتندر والسخرية

والتهكم وسنحاول التعرض لمعاني أهم الألفاظ السابقة:

أما مادة هزء ففيها الحرفان (الهاء والزاي) وهما يوحيان بالخفة واللين، وأصلها من قولهم: أهزأه البرد إذا قتله، وهزأ الرجل إبله هزءاً: قتلها بالبرد، وهزأت الراحلة: إذا حركتها ففي المادة تحريك وقتل بارد لين من غير عنف أو صوت، وتكسير.

أما مادة تهكم ففيها التهكم وهو السيل الذي لا يطاق، والتهكم تهور البئر، وتهكمت البئر تهدمت والتهكم الطعن المدارك، فالمادة فيها الهجوم بقوم وبصوت مسموع، كذلك فهي تصف صاحبها بالكبرياء فالمتهكم المتكبر، والهكم: المتقحم على ما لا يعنيه الذي يتعرض للناس بشره، وقد تهكم بنا: عبث بنا وزرى علينا.

إذن فالتهكم استهزاء في قوة، وعدم خفاء، وتقحم.

أما مادة تندر فهي من ندر الشيء سقط وقيل سقط وشذ ، وقيل سقط من خوف شيء أو سقط من جوف شيء أو من أشياء فظهر ولم أجد في المعاجم تندر عليه، والظاهر أنها أخذت من أصل المادة ندر وفيها محاولة الإسقاط أو إظهار العيوب بطريقة ملتوية فيها تجاهل وإظهار نوادر الشخص الذي يتندر عليه وشذوذه.

أما السخرية فمن مادة (س خ ر) وأصل التسخير التذليل، جاء في (اللسان: سخر) سخرته أي قهرته وذللته وسخره تسخيراً كلفه عملا بلا أجرة، وكل مقهور مدبر لا يملك لنفسه ما يخلصه من القهر فذلك مسخر

وتسخرت دابة لفلان أي ركبتها بغير أجر وأصل المادة في المعجم تدور عامة حول اللين من الناحية الصوتية فإذا تتبعناها عرفنا مقدار ذلك، سواء أكان الحرفان (س ، خ) متواليين أو منفصلين، ومن هذا يتبين لنا أن الحرفين (س خ) في كلمة (سخر) يوحيان باللين (التذليل) والخفاء، وعدم الإبانة بطريقة مباشرة.

أسباب السخرية:

الساخر هو ذلك المتعالي بنفسه عن المجتمع الذي يضحك منه أو من أحد أفراده لأسباب ترجع إلى حقده على المجتمع، لما يشعر به من نقص خلقي أو حرمان وينقد – بما منحه الله من موهبة السخرية – الأفراد أو المجتمع لإخفاء هذا النقص.

وقد ترجع إلى عداوة بينه وبين الشخص الذي ينقده لسبب من الأسباب التي تنجم عن الاحتكاك الدائم بين الناس، لغرض الانتقام.

وقد ترجع إلى تعالي شخص ناقص لا يحس ما فيه من نقص، فيضطر الأديب الساخر إلى أن يرده إلى صوابه أو إلى منطقه، كما يقول برجسون ويحاول حينذاك أن يبحث عن عيوبه فيضخمها ويكبرها . ويجعل منها بفنه أداة للضحك، وقد صدق أدلر حينما قال :البغض والانتقام هما الشيطانان التوءمان اللذان يولدان السخرية.

وقد تتولد عن تعالي الشخص الساخر نفسه، لشعوره بالغرور، فهو لا يفتأ ينقد ما في المجتمع من نقائص أو مفارقات ولذلك قال العقاد

فالعبث والغرور بابان من أبواب السخر، بل هما جماع أبوابه كافة وقد تكون نابعة من حساسية الناقد نفسه، فهو يكون ذا عين بصيرة نفاذة يحس نقائص المجتمع، ثم يكون ذا روح مرح ضاحك يتناول العالم وما فيه تناولا بأساليب السخرية المختلفة، يقصد من وراء ذلك الإصلاح، وفي طياته الإضحاك، أو يقصد معالجة هذه الحساسية- إن صح هذا القول- لأن الحساسية مرض، قد يتناهى حتى يتعب صاحبه فيجعله لا يرضى عن شيء في الحياة، ويهديه الإحساس بوجوده الطبيعي وحب البقاء، إلى الفطنة لهذه الوسيلة في علاج نفسه، أو التنفيس عما يشعر به،ولذلك قال جوته الشاعر الألماني قولته المشهورة السرور يولد القوة والناس في الحقيقة ينتهجون إحدى سبيلين في موقفهم من الحياة: إما أن يستبد بهم الغضب إلى النهاية، وإما أن يحولوا هذا الغضب إلى سخرية من الناس وقد حاول آدلر أن يرجع السخرية أو يحللها كانفعال مركب إلى الغرائز البسيطة التي تتركب منها، فقال هي خليط من انفعالين هما الغضب والاشمئزاز فنحن إذ تثور فينا غريزة النفور نشمئز ، فإذا عدا الشيء الذي أثار اشمئزازنا على صفاء عيشنا، من أية ناحية ، بعثت فينا غريزة المقاتلة والانفعال المقترن بها، وهو الغضب، فيدفعا بنا إلى السخرية مما بعث اشمئزازنا أو ممن أثاره في نفوسنا.

وقد ترجع الرغبة في السخرية من الغير إلى استعداد الفنان المزاجي الذي يكون ذهنه مهيئاً إلى التعريض بالغير، والسخرية من الناس، مع انتفاء دافع شخصي معين، يدفعه إلى ذلك ويمكن أن يصل حد هذا الدافع أو الوازع إلى أن يكون الشخص نفسه ميالاً إلى الشر بطبعه، يميل إلى إغاظة الناس والتشفي منهم، لضعة أصله ومحاولة الانتقام من الناس كرهاً وحقداً، وهذا متأصل في الطفولة الانسانية حينما نرى بعض الصبية يقذفون الحيوانات بالحجارة أو يعتدون عليها من غير رحمة أو شفقة، لغير سبب ظاهر ونرى بعض الناس قد تأصل فيهم الميل إلى المشاكسة وجرى في طبعهم إلى حد مضايقة غيرهم، والشعور باللذة حينما يرون غيرهم يتألمون، وأوضح مثال على ذلك الحطيئة في الأدب العربي وبرناردشو في الأدب الانجليزي، فقد كان الأول مغموز النسب محروم الميراث، لقيط بين القبائل، ونشأ الثاني في بيئة اجتماعية منحلة فكان أبوه يدمن الخمر ولا يحفل بشيء، وإذا أصيب بكارثة أو محنة، رفه عن نفسه بالضحك والسخرية، كما أن أمه تركت زوجها، وعاشت مع معلم الموسيقى دون أن تحفل بمهام البيت، ودون أن تلقى بالاً إلى شئون الزوجية.

مقومات السخرية :

ترتبط السخرية في أعماقها بالمجانة، التي يمكن أن تكون صنو اللامبالاة لأن الساخر يجب أن يكون ماجناً ولو في أعماقه ويجب أن

يكون لا مبالياً بمن أمامه، وإلا ما استطاع أن يجرؤ تلك الجراءة، وأن يضحك منه بالتقليد والمحاكاة، أو بالحركات، أو بالألفاظ في فن الأدب أو بالرسم من ناحية فن الكاريكاتير ولقد عَدّ أدلر المجانة حين محاولته تحليل العواطف إلى الانفعالات البسيطة التي تتركب منها عاطفة تتركب من :الزهو ، والمنافسة، والغرور، والاعتداد وقال: المجانة أساسها الانفعال المسمى بالزهو مقترناً بالاعتداد بالذات، ولا نزاع في أننا نحس أننا أسمى من الشخص الذي يثير فينا المجون، وإن كان عنصر الدهشة أيضاً عاملاً من العوامل التي تبعث على الضحك والمزاح، كما تتطوى المجانة على عنصر المنافسة،وأدخل ما تكون النكتة الطيبة على مشاعرنا حين نتغلب على أصحابنا، ونتفوق بها على أهل مودتنا. وكما أن الساخر يجب أن يكون قوى الأعصاب، يحمل في طياته روح اللامبالاة، أو المجون، كذلك لا بد أن يكون على قدر كبير من الذكاء وقوة المخيلة أو الخيال الهازل الذي يمكنه من اقتناص أو ابتداع الصور النادرة التي يستطيع بها إغاظة خصمه من جهة، وإضحاك نفسه والناس منه، من جهة أخرى .

صور السخرية أو أساليبها :

أول صور السخرية وأقدمها في تاريخ البشر وأكثرها انتشارا بين العامة هي السخرية بالمحاكاة في الكلام والمشي والحركات الجسمية وأنواع السلوك المختلفة، أي في السمات البارزة التي تميز شخصية ما

من الشخصيات كأسلوب ما من أساليب الكناية التي يمتاز بها كاتب من الكتاب أو خطيب من الخطباء أو شاعر من الشعراء في قصيدة ما من قصائده كما فعل حافظ ابراهيم معارضا شوقي في قصيدته المشهورة عن أي ثغر تبتسم وهذا النوع من تقليد القصائد وإحالة الجاد منها بمعانيه إلى هزلي أو مضحك منتشر في الآداب الأوربية أكثر من انتشاره في الأدب العربي.

والسبب في أن التقليد يكون مدعاة إلى السخرية هو أن الساخر المقلد ينقل شخصية المقلد برمتها ويجعلها رداء له يلبسه ويتماجن به كيفما يشاء فكأنما هو يمسخه وكأنما جعل شخصية الألثغ متبلورة أو مركزة في لثغته والفنان لا يكتفي بمجرد التقليد كعامة الناس أو الأطفال بل هو يولد منها صوراً متنوعة كثيرة كلها مشتقة من اللثغة أو من صورة هذا الألثغ وروحه العام.

وقد ذكرت دائرة المعارف الأمريكية هذه الصورة كصورة من أقدم صور السخرية عند الهمج والمتوحشين.

أما المناداة بالألقاب فهي من أقدم الصور السهلة الساذجة في السخرية وتستعمل فيها أسماء الحيوانات كألقاب كقولهم للسمين يا درفيل ، ثم استعمال هذا اللقب فيما بعد اسما يطلق على هذه الشخصية وتعرف به، وكذلك استعمال الصفات المعكوسة وهي عكس ما يتصف به الشخص حقيقة كألقاب ثم أسماء تتكرر كثيراً في صور منوعة

ومناسبات مختلفة حتى يلتصق هذا الاسم بهذه الشخصية كإطلاق صفة الهزيلة النحيفة على المكتنزة والسبع أفندي على النحيف، ويمكن استعمال ألفاظ أجنبية لزيادة الهزء بإدخال عنصر الغرابة كاستعمال (مدموازيل) للعجوز الطاعنة في السن وكذلك استعمال أسماء الرذائل وإضافتها إلى من يدعون التمسك بأهداب الفضيلة كإطلاق الشيخ متلوف – هزءا وسخرية – على الفاسد، والأمين على اللص وإنما لا نحس جرس السخرية من أحرف فحسب بل من الجو المحيط بها، وأعني به الجو الاجتماعي الذي يفهمه السامع أو القارئ: فالكفار قد هزئوا زمن الردة بأبي بكر فسموه بأبي الفصيل.

ومن أقدم طرق السخرية واكثرها شيوعا السخرية بالصوت، وتلوينه ورفعه وخفضه وإعطائه نبرات خاصة معروفة يفهمها السامع غالباً ويعرف صفاتها وكذلك السخرية بانفراج أسارير الوجه وتحريك عضلاته، أو بهز الرأس أو الكتفين أو بالغمز بالعين وقد يكفي للسخرية بالشخص أن تنظر إليه صامتا ثم تأخذ في إدامة النظر إليه وأنت تبتسم ابتسامة السخرية أو تضحك ضحكة السخرية وأعتقد أن هذا النوع أقدم أنواع السخرية، ولكن لا يمكن إثبات ذلك نظراً لأنه لا يسجل على الورق كتابة أو على الحجر نقشا.

أما النوع الرابع فهو :معالجة الشيء الحقير كأنه عظيم، أو ما يسمى في الأدب العربي الذم بما يشبه المدح ويدخل فيه أيضاً تجاهل المعارف وكل

ذلك وغيره يتسق وينتظم في عبارة طويلة لا تستمد تأثيرها من ألفاظها لفظة بلفظة على حدة بل من العبارة برمتها ونضرب مثلا على ذلك بمخاطبة عالم يستهزئ بجاهل قائلا قل لي يا سيدي الأستاذ، أو أخبرني أيها العالم الجليل أو مخاطبة القبيح قائلاً: القمر يغار منك.

أما النوع الخامس فهو معالجة الشيء العظيم كأنه حقير ويمكن أن يكون طريقة من طرق الاستهزاء، كما شبه يتلر أماكن العبادة المسيحية ساخراً بمصرف يذهب إليه الناس ليدفعوا شيئاً ويأخذوا شيئاً.

ومن أنواع السخرية :تجاهل العارف أو التباله :وهي الطريقة المشهورة التي أثرت عن سقراط.

أما التعريض فهو: من أشهر أنواع السخرية في الأدب العربي، وجمع الثعالبي في كتابه الكناية والتعريض طائفة من الأمثلة

ومن صور السخرية :التصوير المبالغ فيه (الكاريكاتير) وهو وضع الشخص في صور مضحكة: كالمبالغة في تصوير عضو من أعضاء الجسم ومحاولة تشويهه إلى حد ما، بحي يجعل الشخص كأنه لا يدرك أو يعرف إلا بهذا العيب الذي جسده وكبره.

ومن صورها :السخرية عن طريق التوريه وهي العبقرية التي تجعل شخصاً من الأشخاص يستعمل ألفاظاً تعني شيئاً ما بالنسبة إليه، وشيئاً آخر بالنسبة لمن يعرف الحقيقة .

ومنها : السخرية عن طريق الصور الملفقة المضحكة أو ما يسمى

بالادعاء أو الدعاوي الكاذبة، ومنها اختراع النوادر والنكت وإضافتها إلى أغنياء الحرب ومحدثي النعمة والقرويين السذج الذين زاروا المدينة لأول مرة مثلا، فمن أمثلة السخرية بالقرويين والتشنيع عليهم أن قرويا زار القاهرة، فسأله زميل له مختبرا: على ذلك فأنت تعرف الترام والمترو فأجاب القروي: كيف لا، وقد أكلت منهما كثيراً كذلك التندر التشنيع على الأطباء والمعلمين وغيرهم من ذوي الحرف المختلفة ومحاولة تسديد سهام النقد إلى ناحية من نواحي النقص التي عرفت عنهم.

ومنها: مجابهة الشخص بعكس ما يتوقع، ومن ذلك سرعة الجواب الساخر، كتلك النادرة التي تروي أن صيادا رمى عصفورا فأخطأه ، فأراد ساخر أن يسخر به، فقال له أحسنت فقال الصياد: أتهزأ بي؟ فرد عليه الساخر بسرعة ولكنك أحسنت إلى العصفور ومن ذاك ما يحكى عن أحد الأمراء أنه أراد أن يسخر بالشاعر الفرنسي فيكتور هوجو، فقال له ألم يكن أبوك خياطاً؟.

قال فيكتور : بلى.

فقال الأمير: ولماذا لم تكن خياطاً مثله؟

وبنفس الطريقة سأله الشاعر: وأنت أيها الأمير: ألم يكن أبوك مهذباً؟

فقال الأمير: بلى.

فقال الشاعر: ولماذا لم تكن مهذباً مثله؟

والتهكم من صور السخرية الشفافة التي ليس من السهل تعريفها لكنها تعرف بالذهن اللماح، قال النويري والفرق بين التهكم وبين الهزل الذي يراد به الجد أن التهكم ظاهرة جد، وباطنه هزل، والهزل الذي يراد به الجد على العكس منه وقال آخر : أصل الأمر في التهكم أن تقول قولاً وأنت تريد ضده كقول النظام: ما بعد هذا الكلام كلام: فهو لم يقصد بهذه العبارة إلا ضدها، ظاهر كلامه الاعتراف بعلم المخاطب، ولكن باطنه تعريض بجهله.

ومن تلك الصور أيضاً :السخرية بالمفارقة في الحوادث تسمى سخرية القدر ويستخدمها الساخر بمهارة في القصص ومن أمثلة ذلك دخل رجل على طبيب في عيادته فاعتقد الطبيب أن الزائر مريض يطلب علاجاً، وأراد أن يوحي إليه بمقدار أجره في غير مساومة ، فعمد إلى التليفون، وراح يقول لمحدثه المزعوم:

نعم أنا الدكتور (فلان) إنني مشغول جدا تسأل عن القيمة المطلوبة؟ إنها كما أخبرتك: أربعمائة جنيه وأنت تعرف هذا حسن إلى اللقاء إذن. ثم وضع سماعة التليفون، والتفت إلى الزائر متسائلاً: ماذا أستطيع أن أصنع لك يا سيدي؟

فأجابه لا شيء إنني موظف مصلحة الضرائب، والساخر لا يستخدم لغة مضحكة ، بل يترك الموقف للسامع أو القارئ لكي يضحك منه ما شاء له الضحك.

تاريخ السخرية فى أوروبا:

للسخرية أو الميل إلى إثارة الضحك بواسطة الصور المضحكة جذور عميقة في الطبيعة البشرية، وهي من أقدم المواهب الفطرية التي مارسها الإنسان في مجتمعه البدائي غير المهذب، وولوع الإنسان بالضحك والهزء والفكاهة، وفطنته السريعة إلى كيفية إثارتها قد شملت البدائيين، وقد ظهرت بوضوح في علاقات بعضهم ببعض من قديم الزمن وحتى قبل أن يصقل الإنسان أدب أو فن، كان رئيس القبيلة البدائية يجلس في كوخ محاطاً بالمحاربين من قبيلته، وكانوا يسلون أنفسهم ويتلهون بتناول أعدائهم وخصومهم بالسخرية منهم: فكانوا يضحكون من ضعفهم ويتبادلون النكات بما يجدون فيهم من نقص أو تشويه، سواء كان هذا النقص عضوياً، أو في عقلهم وحيلتهم، ويطلقون عليهم ألقابا مضحكة، وهم يقصدون من وراء ذلك أن يهزأوا بهم بالألفاظ أو بأن يلفقوا عنهم الحكايات التي هي في عداد الأشياء التي تثير انبساط أساريرهم وضحكهم.

ثم انتقل الإنسان القديم إلى مرحلة تالية في هذا الفن بأن بحث عن وسيلة يكسب بها هسخريته صورة أكثر بقاء وخلوداً، فأخذ يرسمها على الصحف المكشوفة، أو على أي سطح لين رسما ساذجا.

ثم عرف هذا الفن عند كثير من الأمم القديمة كالمصريين والإغريق والرومان والهنود والوثنيين والمسيحيين وقد وصلت آثار أدبية ساخرة

عن أرستوفان أعظم مؤلفي الكوميديا الإغريقية وكان الكتاب الساخرون دائماً رواد الحركات الإصلاحية في التاريخ فاشتهر سقراط منذ القدم بطريقته الساخرة ومحاولة إثارة الموضوع الذي يتكلم في أو يناقشه بهذه الطريقة، وأصبح من ذلك الوقت علماً على هذه الطريقة في هذه الفلسفة أما هؤلاء الذين تقدموا النهضة الأدبية والاجتماعية والسياسية في أوروبا، وفتحوا عصوراً جديدة في تاريخ شعوبهم بل تاريخ النهضة الانسانية فهم رابليه الفرنسي وسرفانتس الاسباني أما الثورة الفرنسية فقد قدم لها ومهد المصلحون الساخرون وعلى رأسهم فولتير .